الفصل الثالث عشر

الطب اليونانى فى القرن الخامس وطابعه الأبقراطى

مع أن هذا الكتاب ليس تاريخاً للطب فقد سبقت فيه إشارات كثيرة إلى موضوعات طبية بحتة . ولعلنا نستغرب أن يكون الطب القديم ، قبل هذا الزمن ، قد بلغ أوجه على يد المصريين فى القرن السابع عشر وقبله ، أى قبل العصر الذى نحن بصدده بأكثر من ألف سنة ، ووصلت شهرته إلى بلاد اليونان كما تشهد بذلك الأوديسا[1] وتاريخ هيرودوت[2] والمصنفات الأبقراطية[3]. نعم ، إن الأطباء المصريين فى عهد دارا (ملك فارس ومصر من ٥٢١ إلى ٤٨٥) لم يحتفظوا بالمكانة التى كانت لهم فى عهدهم الذهبى ، بل أوشك من اضطلع منهم بمعالجته أن يلاقوا حتوفهم لولا وساطة ديموسيدس[4] ، الذى ذكر أن دارا أعاد إنشاء معهد الطب المصرى فى سايس[5] Sais . ومن الممكن أن يكون اليونان قد اقتبسوا شيئاً من المعارف الطبية البابلية ، إلا أنهم توصلوا ، منذ عهد هوميروس ، إلى استنباط الكثير من المعلومات بجهدهم الخاص . وما كاد القرن الخامس ينصرم حتى وصلوا بالطب إلى مستوى أرفع جدا مما كان عليه سابقاً فى مصر أو فى بلاد ما بين النهرين . ولكى نوضح أمر هذا الانقلاب—الانقلاب الأبقراطى — يتحتم علينا أن نلم موجزين بالتطور الطويل الذى أدى إليه .

من هوميروس إلى أبقراط :

تشير الإلياذة إلى كثير من المعلومات الطبية لا سيما ما اتصل منها بالجراحة . فتسمى لنا طبيبين قديمين[6] ماهرين هما بودالير يوس Podaleirios ومخايون Machaon ابنا اسكلبيوس Asclepios ابن أبوللو Apollo . ويصعد بنا هذا إلى

الأصول الدينية التى انحدر منها التعليم الطبى . فى عهد هوميروس لم يكن اسكلبيوس إلهاً بل طبيباً « لا يناله اللوم » ، وازدهرت تعاليمه فيما بعد فى عدد كبير من المعابد[٧] ، وعد منها فى العالم اليونانى نحو ٣٢٠ معبداً . واشتملت طقوس هذه التعاليم على اغتسال الطهر وحضانة روحية تتجلى فيها للمريض رؤى يساعد تعبيرها على شفائه مما ألم به . وحين رفع أسكلبيوس إلى مصاف الآلهة رمز إليه برأس أسوة بزيوس (Zeus) وجُعل فى يده صولجان التفت حوله حية واحدة . والحية رمز قديم لعبادة قوى الشر فى العالم : تلك العبادة التى قرن بها اسم اسكلبيوس نفسه[٨].

إن « الحضانة الروحية » طقس مارسه المصريون قديماً ، ولعل اليونان اقتبسوه منهم ، أو لعله نشأ عندهم نشأة مستقلة ، لأنه أمر طبيعى . فالمرضى أينما كانوا يتضرعون إلى معبوداتهم التماساً للصحة والإخصاب . وقد يغرون ، حيث المناخ حار ، بالنوم فى باحة المعبد . ومتى كان الكهنة الذين يتعهدونهم من ذوى النباهة ، بذلوا ما فى وسعهم لجعل الجو أشد ما يمكن ملاءمة لتحقيق « الحضانة الروحية » : من راحة وافية ونشاط روحى وافر ، إلى أمن تام وثقة أكيدة . وفى الصباح التالى يندفع المرضى فى التحدث عن اختبارهم وحكاية ما اعتورهم فى تلك الليلة العجيبة التى سنح لهم أن يقضوها فى المعبد المقدس . وأهم شىء هو الرؤى التى يجتهد الكهنة فى تفسيرها ، والتى تزيدهم معرفة بحاجات المريض . أما تفاصيل هذا الطقس فتختلف بين مكان وآخر . واستخدامه لشفاء الأمراض يتوقف على نباهة القائمين على المرضى . فقد تطغى الخرافة عليه فى بعض المعابد[٩] وتغلب عليه الصفة العلمية فى سواها ، إذ من الثابت أن مزاولة هذا الطقس فى أفضل حالته كان أمراً صالحاً . ذلك أنه يسّر لمقومات الإيحاء ، والإيحاء الذاتى ، أن تعبأ لهذا الغرض . وأى وسيلة أنجع من هذه فى إحياء معنويات المريض وتعزيز حالته النفسية .

ولم يعرف هذا الطقس إلا أخيراً نسبيا ، فظهر فيما يظن فى أبيداوروس[١٠] Epidauros قبيل سنة ٥٠٠ على أبعد تقدير . وبقى هذا المكان المقر الرئيسى

لعبادة أسكلبيوس ، ثم اشتهرت بالإضافة إليه بعد ذلك معابد كنيدوس Cnidos وكوس Cos ورودس Rhodes وبرقة Cyrene . ولهذه المعابد أهمية خاصة بالنسبة إلى النشأة الأولى للطب اليونانى ، فإنه حين تعذر وجود مطبيين ، كان فى استطاعة النبهاء من الكهنة أن يجمعوا تباعاً بيانات تاريخية عن الحالات المرضية ، ولا يستبعد أنهم دونوها وحفظوها ، بل لعلهم أخذوا فى تصنيفها وتبويبها بقليل أو كثير من الوعى والتعهد ، حتى تم لهم تدريجيا تأليف مصنف فى الاختبارات الطبية . أما تعبير الرؤى فقد يتيح المجال لحديث شخصى بين الكاهن والعليل يشبه من وجوه ، فى العصر الحاضر ، التماس النصح من المرشد الدينى أو الطبى أو « الإخصائى » فى التحليل النفسى . ولا يفوتنا أن المعالجة بالأساليب الرشيدة يمكن أن يداخلها ، ولعله داخلها ، شىء من الممارسات السخيفة . إن الكثيرين من ذوى العلل يحتاجون إلى مثل هذه المعالجة ، فهم يطلبونها ويظفرون بها .

ثم إن معالجة المعبد مهما بلغ حظها من الأحكام قلما تجاوزت الوسائل النفسانية . وقد يشير الكهنة باستخدام بعض العقاقير ، ولكنهم لا يقدمون على شىء من عمليات الجراحة أو التوليد . وحتى وسائل العلاج الصغرى ، كالفصد والتدليك ونحر الضحية ، كانوا أميل إلى مجاوزتها والاشتغال عنها بسواها . فالتجارب الطبية التى توالت فى بعض المعابد تكاد تكون محصورة فى حقل علم النفس — وهو حقل فى غاية الاتساع طالما أعاره الأطباء اليونان الاهتمام اللائق .

إن التعليم الطبى الذى وصل إلينا يشبه أن يكون قد وقع أولا تحت تأثير أساليب المعابد فى العلاج . ولكن ينبغى أن نؤكد أن مصنفات العهد الأبقراطى تكاد تكون قطعاً علمية وعقلية ، لولا آثار من نزوات الخرافة وما لا يستحق الذكر من تلميح إلى الدين[١١] .

أما المعلومات الأساسية فى العقاقير فقد تجمعت طيلة قرون عديدة على يد جامعى الأعشاب ومقتلعى الجذور (rhizotomoi) ، وبناء على ما فى متناول يدنا من جملة المعلومات المتجمعة عن طريق التجربة ، وعلى ما نعرف من

بطء شديد فى هذا الطريق ، نستطيع أن نقرر أن ذلك استمر أجيالا لا تحصى . فقد اختبر عدد عظيم من النباتات وعرفت بعض منافعها وكشفت أخص مؤثراتها ، ثم استنبطت الوسائل الفعالة لجمع ما كان منها أكثر نفعاً . وإن لم يمكن تعليل منافعها تعليلا معترلاً وجدت الخرافة والسحر مكانهما إلى استكمال ذلك . ولذا يتعذر علينا أن نخوض فى هذا دون أن نتوه فى مجاهل الخرافات ، ونضل فى شعابها الكثيرة . وإزاء هذا نكتفى بإيراد الحقيقة التالية : وهى أن تأثير كثير من أنواع النبات كان معروفاً لدى مقتلعى الجذور قبل نشأة علم الطب بزمن طويل . فقد تلقى الأطباء الأبقراطيون من أسلافهم المجهولين كنوزاً من العقاقير . وكل ما احتاجوا إليه من الأعشاب جمعه لهم عشابون محترفون تقيدوا فى عملهم هذا بجميع الطقوس الخرافية المعهودة . وكان عليهم مثلا ، فى غضون عملهم هذا ، أن يكونوا فى حالة من الطهر ناتجة عن قيامهم ببعض الشعائر الدينية ، وإلا فلا تنفع الأعشاب المجموعة . وكان يشترط فى بعض أنواع الأعشاب أن تجمع فى الظلام ، أو فى أوان ازدياد القمر أو تناقصه . وأن ترتل أثناء جمعها بعض الآيات السحرية ، وتستخدم لذلك أدوات خاصة . وتتناول الأعشاب المجموعة بحسب مراسم معينة ، ويجرى ذلك على وجوه شديدة التنوع . ويهيمن على كل مرحلة من مراحله ضرب من المعانى السحرية . وكما ذكر كونواى زيركل Conway Zirkle « أن جمع الأعشاب أو اقتلاع الجذور من صدر الأرض الأم يشبه إجمالا اقتلاع الشعر من ظهر نمر راقد ، وهى مهمة خطرة ما لم تتخذ لها الاحتياطات اللازمة[١٢] » وعلى كل لم يكن لزاماً على أطباء العهد اللاحق أن يستكشفوا الأعشاب أو الجذور . بل كان يؤتى بها إليهم ، وكانت مهمتهم تقتصر على إعادة استطلاع خصائصها وتعيين طريقة الاستعمال ومقدار الجرعة ، على نحو أقرب إلى مقتضيات العلم .

وبينما كان حماة الطريقة الأسكلبية يزدادون علماً بطاقة الإنسان على الدفاع النفسانى ضد المرض ، ومقتلعو الجذور يمضون فى جمع الجذور والجذوع والأوراق والأزهار والثمار ويختبرون مفعولاتها . أخذ عدد من المدارس الفلسفية

فى استنباط النظريات . ولنستعد إلى الذاكرة بصورة خاطفة المؤثرات الفلسفية التى كان من المحتمل أن تجىء ، وقد جاءت فعلا ، من أربع مناطق من العالم اليونانى وهى : جنوبى إيطاليا (Magna Graecia) صقلية ، أيونية Ionia وتراقيا .

فمن جنوبى إيطاليا جاءت التعاليم الصوفية (فيثاجورس وأتباعه) وطبيب هذه المدرسة البارز الكمايون الكريتونى (Alcmaion of Croton) ، وكان على جانب من الفطنة ، فأدرك مثلا أهمية الدماغ من حيث هو مركز للحواس ، وأن العافية ضرب من التوازن بين القوى . وقد حمل ديموسيديس (Democedes) ما توصل إليه الكمايون إلى بلاط فارس فى سوس Susa . ومع أن فيلولاوس (Philolaos) كان معنيًّا خاصة بعلم الفلك فإنه عرف شيئاً من علم وظائف الأعضاء ، وكان السابق إلى التمييز بين الوظائف الحسية والحيوانية والنباتية . ملاحظاً أن مركزها على التوالى فى الدماغ والقلب والسرة (ولا بأس بهذا إلا فيما يتعلق بالنوع الثالث) . وكانت الأفكار العامة التى لم ينقطع سيلها فى وقت ما . والتى طبعت بطابعها — قليلا أو كثيراً — تفكير الأطباء والفلاسفة على السواء ، تفوق مسائل الطب الخاصة تأثيراً .

و « نبى صقلية » هو إمپيدوكليس Empedocles ، وكان شديد الرغبة فى الطب وعلم وظائف الأعضاء . وإن كان مغرماً بالشعر واستطلاع الغيب (وهو شبيه لپاراكيلسوس Paracelsus) . وفى مقدمة أتباعه آكرون الأجريجنتى (Acron of Agrigentum)[١٣] (القرن الخامس ق.م.) ، وبعده بقليل فيلستيون اللوكروى (Philistion of Locroi) (النصف الأول من القرن الرابع ق.م.) وقد علق كلاهما أهمية خاصة على الهواء داخل الجسم وخارجه . وميز أكرون بين مجارى الهواء المختلفة النافع منها للإنسان وغير النافع . ووضع — فيما ذكر سويداس (Suidas) — نظاماً لطعام (Regimen) الأصحاء من الناس (peri trophes hygieinon) . وعن پلوتارك (Plutarch) أنه أشار بإضرام النار لتنقية الهواء . عندما اجتاح الطاعون أثينا . وفى هذه الرواية ما يثير الشكوك لأن ثوكيديدس

لم يشر إليها ولا إلى أكرون . ومهما يكن من أمر فإن هذا الخاطر : وهو أن الطاعون قلم نقل بالهواء ، وأن فى الإمكان تفاديه بتطهير الهواء، لرائع حقاً . وقد تكرر وروده دورياً لدى انتشار كل وباء حتى القرن التاسع عشر .

وكانت أيونيا (أو آسيا الصغرى) المهد الثالث للبحث النظرى فى الطب. ويكفى شاهداً على ذلك أن نستعيد إلى الذاكرة أسماء أنكسيمنيس الميلينى Anaximenes of Miletos ، وأناكساجوراس الكلازومينى (Anaxagoras of Clazomenai) وهركليتوس الأفسوسى (Heracleitos of Ephesos) وأرخيلاوس الملييتى (Archelaos of Miletos) . ويجوز أن يلحق بهم — أخيراً ديوجنيس الأبوللونى[١٤] (Diogenes of Apollania) . وكان هؤلاء علماء فى الفسيولوجيا أى علم وظائف الأعضاء ، بالمعنى القديم ، بل كان بعضهم كذلك بالمعنى الحديث . ذلك أن نظرياتهم الكونية كانت ذات صلة تطبيقية بشؤون الأحياء فى عالم الطبيعة . فأنكساجوراس وديوجنيس قاما بعمليات تشريحية[١٥]، وعزز الأخير اتجاهات أناكسيمينيس وباقى الصقليين فيما يتعلق بصلات الآلهة بالشؤون البشرية .

وهنالك ، أخيراً، المؤثرات المنبعثة من تراقيا (Thrace) على يد ديموكريتوس الأبدرى (Democritos of Abdera) الذى عرفه أبقراط معرفة شخصية ، وعلى يد هيروديكوس السلمبرى[١٦] (Herodicos of Selymbria) الذى كان فيما يقال ، معلمه . كان هيروديكوس يعلق أهمية كبيرة على الألعاب الرياضية ملاحظاً أن النشاط الجسدى والتقنين الغذائى ينبغى أن يتمم أحدهما الآخر ويوازنه (وهذه إحدى النظريات الأبقراطية الأساسية) . أما ديموكريتوس فلدينا بعض المراسلات الغريبة التى جرت بينه وبين أبقراط[١٧] . ومع أن نسبتها غير ثابتة فإنها تدل على الشعبية التى كانا يتمتعان بها . هذا إلى أنها وثائق لدراسة الأسطورة الأبقراطية التى أخذت تتكون فى عهد عريق فى القدم . وتبحث هذه الرسائل فى الاختلال العقلى ومعالجته بالنبات الطبى المعروف بالخربق الأسود . ومن الثابت أن ديموكريتوس كان شديد التعلق بما يمكن أن يسمى القضايا النفسانية الطبية ، أو بتعبير حديث ناب : الطب الروحانى الجسمانى .

ولا شك فى أن هذا الطب كان خير ما عرف فى دراسات اليونان الطبية . ولا غرابة فى ذلك إن أخذنا فى الاعتبار الأصول التى سبق بسطها : (الحضانة الروحية ، والفلسفة) . إن معارف ديموكريتوس المستفيضة تبدو فى اتساع مدى دراساته الطبية ، وقد نسبت إليه ضروب كثيرة من البحوث التشريحية .وحاول أن يعلل الالتهاب والصرع وانتشار الأوبئة بالعدوى ، ولمس كثيراً من المسائل المستعصية ، مثل طبيعة الحماسة ، والخلق الفنى والعبقرية والعته . ويبدو أن جهوداً بذلت فى ذلك العهد (فى معابد الاستشفاء فى الغالب) لشفاء المرضى عن طريق الموسيقى ، وحاول ديموكريتوس أن يعلل الشفاء عن هذه الطريق . وقد استخدمت الموسيقى خاصة فى معالجة الاضطرابات النفسية ، واستخدمت أيضاً فى حالات أخرى كالتسمم الناتج عن لذع الأفاعى . والراجح أن الأعراض النفسية التى ترافق حالة التسمم هى التى أوحت إليهم بالعلاج الموسيقى[١٨] . على أن محاولات ديمقريتوس لتوضيح أحوال الحياة النفسية وأسرارها لم تكن ناضجة ، ولا يزال جهلنا بهذه الأمور عظيماً حتى اليوم ، على أن الجهود العلمية اليونانية فى عهده كانت جميعها كذلك . وكان طرح الأسئلة أيسر عليهم من الإجابة عنها ، ومع ذلك مجرد طرح تلك الأسئلة اقتضى قسطاً غير عادى من الخيال والحكمة ، والاستعداد لطرح الأسئلة العويصة ، والرغبة الملحة فى ذلك من خصائص العبقرية اليونانية ، وهذا بالذات ما فعلته .

والآن لنتحدث عن الموضعين اللذين نضج فيهما الفكر الطبى : أعنى كنيدوس وكوس ، وهما فى منطقة واحدة هى مقاطعة كاريا Caria الواقعة فى الزاوية الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى[١٩] . إن وقوع المدرستين الرئيسيتين للطب فى تلك الزاوية الصغيرة لم يجئ اتفاقاً . فنظرة إلى الخريطة ترينا أننا لو أردنا الإبحار فى اتجاه شمال غربى كوس وقعت جزر أيونيا ثانية فى مجال أنظارنا ، ولو اتجهنا جنوباً لانتهينا ، بعد اجتياز مسافة قصيرة ، إلى رودس . ونستطيع من رودس أن نبحر فى خط منحن إلى قبرص ففينيقيا فمصر فالقيروان ، ثم نعود إلى كريت ، ومن هنا تسلمنا جزر سيكلاديس كل واحدة إلى الأخرى حتى

نبلغ أرض اليونان . والمسافر بحراً يستطيع أن يجتاز بحر إيجة واليابسة تكاد لا تغيب عن نظره إطلاقاً . وأهم ما فى الأمر أن كاريا ، وظهرها إلى روسيا ، أقرب نسبيا إلى كريت وقبرص ومصر . ومن ثم كانت ذات موقع استراتيجى للتبادل الفكرى . وليس ثمة ما يدعو إلى تجاور مدرستى كنيدوس وكوس هذا التجاور ، الأمر الذى يتعذر تفسيره ، وربما تفرعت إحداهما عن الأخرى ، وإن عز علينا القطع بذلك ، لا سيما وقد بزغ نجم المدرستين فى أفق الطب فى آن واحد . بعد عهد غامض من التهيؤ خلال جيلين أو ثلاثة لكلتا المدرستين ، ولا سبيل إلى تحديد ذلك بالدقة .

وبما أن معظم هذا الفصل والفصل الذى يليه سيخصص للبحث فى شئون مدرسة قوس فلنبدأ بمنافستها المعاصرة .

مدرسة كنيدوس

إن الفارق الأساسى بين مدرسة كنيدوس ومدرسة كوس هو أن الثانية عنيت بالمرض عامة ، فى حين عنيت الأولى ببعض الأمراض الخاصة . ويمكن أن نقول ، بلغة الطب الحديث ، إن مدرسة كوس كانت تمارس الطب العام (الباثولوجيا العامة) ، بينما اقتصرت مدرسة كنيدوس على الطب الخاص (الباثولوجيا الخاصة) . ولكل من الاتجاهين ما يبرره . وقد يذهب البعض إلى أن الثانى لا يقل ضرورة عن الأول ، ولكن حتى مع التسليم بذلك ، يعد الثانى سابقاً لأوانه . ويذكر جالينوس أن أطباء كنيدوس عرفوا سبعة من أمراض المرارة ، واثنى عشر من أمراض المثانة ، وهو قول ظاهر البطلان . ذلك أن وسائل التشخيص المرضى الدقيق لم تكن كافية لكشف الأعراض النوعية للأمراض . أعنى للتمييز بين الأعراض ذات الدلالات التفاضلية ، وسواها من الأعراض التى ليس لها مثل هذه الدلالات . فأطباء كنيدوس كانوا عاجزين عن تحقيق فروق كهذه ، وقد أسرفوا فى الاهتمام بالتفاصيل العرضية حتى انتهى ذلك بهم إلى اختلاق أوهام من التصنيفيات المرضية

(وهذا هو خلاصة نقد مدرسة كوس لهم) .

عرفنا ، حتى الآن ، واحداً من أطباء كنيدوس هو المؤرخ كتسياس (Ctesias) الذى اشتهر فى البلاط الفارسى . وطبيبهم الأشهر هو يوريفون الكنيدى (Euryphon of Cnidos) ، ولعله ، مؤلف أو ناسخ مجموعة من الأقوال المأثورة هى « الأقوال الكنيدية » (Cinidiai Gnomai) ورسائل كنيدية أخرى محفوظة فى مجموع المصنفات الأبقراطية[٢٠]. وقد فقدت « الأقوال المأثورة » لسوء الحظ ، وحسر بفقدها وسيلة كان يمكن أن نستعين بها على التمييز بين المدرستين ، وهو أمر ليس بالهين ، لأن الفارق بينهما كمّى لا نوعىّ ، هذا إلى أن المدارس الطبية المتنافسة لا يمكن أن تكون متباينة كل التباين ، وبالعكس مواطن الاتفاق بينها أكثر بحكم الضرورة من مواطن الخلاف . فأطباء كنيدوس مثلا كانوا — فيما يبدو — أكثر اهتماماً بشؤون التوليد وأمراض النساء من زملائهم الكوسيين ، ومع ذلك لا يمكن أن يكون هؤلاء قد تخلوا تماماً عن معالجة النساء[٢١].

قام يوريفون بأبحاث تشريحية ، ووضع كتاباً فى « الحمى الزرقاء » (pelie nosos) ، وشرح ذات الجنب على أنه علة فى الرئة ، وعالج السل باللبن والكى بالحديد المحمى . واشتهر ، بعد ذلك بقليل ، طبيب كنيدى ثالث هو خريسيبوس (Chrysippos) الذى كان تلميذاً لفيلستيون (Philistion) ويودكسوس[٢٢] وقد جمع فى شخصه بين نظريات كوس وصقلية .

لم تقتصر كنيدوس على إنجاب يوريفون وكتيسياس وخريسيبوس من الأطباء ، بل أنتجت أيضاً المهندس المعمارى سوستراتوس (Sostratos) (النصف الأول من القرن الثالث ق.م.) بانى منارة الإسكندرية ، والجغرافى أجاثارخيديس (Agatharchides) (النصف الأول من القرن الثانى ق.م.) . وأنجب أبناؤها على الإطلاق يودوكسوس (Eudoxos) النصف الأول من القرن الرابع ق.م.) . وفى النصف الثانى من القرن الرابع تقاطر الحجاج مزدحمين إلى معبد كنيدوس ليشاهدوا تمثال أفروديت ، وهو إحدى روائع براكسيتيلس (Praxiteles) الفنية .

مدرسة كوس

بينما كان أطباء كنيدوس يطبون ويبحثون على رأس من رؤوس هذه الجزيرة ، ظهرت مدرسة أخرى إلى الوجود فى جزيرة دانية الجوار . ونظرة ثانية إلى الخريطة ترينا أن جزيرة كوس تقع عند مدخل خليج [كيراميكوس سينوس Ceramicus Sinus] ، وأن الملاح الداخل إلى هذا الخليج يجد هاليكارناسوس (Halicarnassos) إلى يساره وكنيدوس إلى يمينه . وإذن كان هيرودوت ويوريفون وأبقراط ، فى وقت ما ، على مقربة تامة . وكوس جزيرة صغيرة (١١١ ميلا مربعاً) ، ولكنها خصبة جميلة ورائعة الموقع . تنتج الخمور والدهون (الطيوب) والحرير . وتعيش دودة القز الكوسية (bombyx of Cos) على ورق السنديان والدردار والسرو ، لا على ورق التوت كدودة القز الحقيقية . وهكذا كان الحرير الذى تنتجه مختلفاً عن الحرير الصينى . واستنبطت امرأة كوسية ، هى بانفيلا ابنة بلاتيوس (Pamphila-Plateus)[٢٣] ، طرقاً لإنتاج الحرير المحلى وحياكته فصنعت منه أنسجة بلغت من الرقة أن كادت تغدو شفافة ، وصارت من أظهر كماليات العهد الأوغسطينى[٢٤] . وكما كانت كوس غنية بالعنب والحرير ، كانت ذات حظ فى رجالها ، فهى مسقط رأس (أو الموطن الرئيسى) لثلاثة من شعراء القرن الثالث ق.م. هم فيلتاس (Philetas) وهيرودا س(Herodas) وثيوكريتوس(Theocritos) والفنان المبدع أبلليس Appelles (اشتهر ٣٣٦ — ٣٠٦) الذى رسم لمعبد الجزيرة صورة شهيرة لأفروديت تمثلها خارجة من البحر (he anadyomene Aphrodite) . ومن دواعى الانشراح أن نتصور أبقراط وأتباعه فى وسط كروم العنب وحقول التوت ، وأن نقرن ذكراه بذكرى مصور لامع وشعراء أفذاذ . وأن نتصور كذلك أسكلبيوس يباهى أفروديت فيغرى الحجاج بزيارة الجزيرة[٢٥] . وفيما يعنينا الآن ، تعد جزيرة كوس قبل كل شىء ، مقر أعظم مدرسة من مدارس الطب فى التاريخ القديم . وإذا كان أبقراط لم يؤسس هذه المدرسة ، فإنه بلغ من التفوق على جميع أطباء تلك الجزيرة بحيث

غدا « الطب الكوسى » و « الطب الأبقراطى » اليوم تعبيرين متعادلين . فمن هو أبقراط هذا ؟

أبقراط الكوسى

إن سرد كل ما نعرفه عن أبقراط لا يستغرق وقتاً طويلا . ولد فى جزيرة كوس حوالى سنة ٤٦٠ ، وتعلم الطب على والده هراكليديس (Heraclides) وهيرو ديكوس السليمبرى (Herodicos of Selymbria) وساح فى بلاد اليونان سياحة واسعة ، والحالات المرضية التى وصفها فى الجزءين الأول والثالث من كتاب الأوبئة Epidemics ، مثلا ، تتصل بجزيرة تاسوس Thasos ، ومدينة لاريسا فى تساليا (Larissa in Thessaly) ومدينة أبديرا فى تراقيا (Abdera in Thrace) والراجح نه تعرف بديموكريتوس فى هذه المدينة أو فى أثينا (؟) ، ومدينة ماليبوا (Maliboea) فى ماجنيزيا (Magnesia) (شرق تساليا) ومدينة سيزيكوس (Cyzicos) إلى الجنوب من بحر مرمرة ، وأماكن أخرى . واستشاره طبياً برديكاس الثانى Perdicas II (ملك مقدونيا حوالى سنة ٤٥٠ — ٤٠٣) ، وأرتاكسركسيس الثانى منيمون Artaxerxes II Mnemon (ملك فارس ٤٠٥ — ٣٥٩) ، وتوفى فى لاريسا بعد أن عمر طويلا . وإذا كان تاريخ ولادته حوالى ٤٦٠ صحيحاً ، وعاش ما يقرب من خمس وثمانين سنة ، كانت وفاته حوالى سنة ٣٧٥ ، ويكون قد أوغل فى القرن الرابع [٢٦] .

لدينا ثلاث ترجمات لحياة أبقراط ، أقدمها من وضع سورانوس (Soranos) (النصف الأول من القرن الثانى) ، ولكن هناك إشارات إلى وجوده تسبق ذلك بكثير . فذكره أولا معاصره الأصغر أفلاطون ، تحدث فى كتابه بروتاجوراس [٢٧] (Protagoras) عن شاب قصد إلى أبقراط طبيب كوس ليأخذ عنه علم الطب ، وفى فيدروس [٢٨] (Phaidros) يناقش ناحية من التعليم الأبقراطى ، وهى الحاجة إلى فهم الطبيعة تمهيداً لتفهم جسد الإنسان ونفسه . ويسوغ لنا أن نستخلص من هذين الشاهدين أن أبقراط الكوسى ينتمى إلى أسرة من الأطباء الأسكلبيين

(سنشرح المقصود بذلك الآن) ، وأنه عنى بتدريس الطب وبلغ فيه شهرة ما فى غضون حياته .

ويتحدث أرسطو فى كتاب السياسة[٢٩] (Politica) عن عظمة أبقراط الطبيب . وأى حاجة بنا إلى شهادات أخرى بعد شهادات أفلاطون وأرسطو ؟

ومن مظاهر التعارض المستغرب ألا يشير أحد القدماء إلى مؤلفاته[٣٠] ، حتى يستطيع ويلاموفتز مولندورف (Wilamowitz Moellendorff) أن يتحدث عنه « كرجل بلا مؤلفات » . ولكن لاشك فى وجود عدد وافر من المؤلفات الأبقراطية . وستناقش صحة نسبة هذه المؤلفات إليه فى الفصل التالى .

ينتسب أبقراط إلى أسرة ذات شهرة واسعة فى الطب الأسكليبى . فجده أبقراط ووالده هراكليديس (Heraclides) مارسا معاً الطب قبله . وكان ثانيهما ، بطبيعة الحال ، معلمه الأول . وتلاه ابناه تسالوس (Thessalos) ودراكون (Dracon) ، وصهره بوليبوس الكوسى .

إن الرسالتين الجراحيتين رسالة الكسر (Fracture) ورسالة المفاصل (Joints) ، وهما من مفاخر الطب الأبقراطى ، سبقت نسبتهما إلى جده أبقراط بن جنوسيديكوس (Gnosidicos) . وهذه النسبة وإن رفضت بوجه عام ، تدل على أن الجد كان طبيباً ذا مكانة مرموقة .

واشتهر تسالوس فى بلاط أرخيلاوس ملك مقدونيا بين سنتى ٤١٣ و ٣٩٩ ، وكان أحد مؤسسى المدرسة الجزمية فى الطب (Dogmatic School) . ونسب إليه تحرير القسم الثانى والسادس بل والرابع من كتاب الأوبئة (Epidemics) فى غير ما دليل . وقال عنه جالينوس إنه ألمع أبناء أبقراط[٣١] .

أما بوليبوس (النصف الأول من القرن الرابع ق.م.) فكان أبرز خلفاء أبقراط . ولعله واضع رسالة « طبيعة الإنسان » على نحو ما أشار به أرسطو .

وكل ما نعلم عن شكل أبقراط الخارجى أنه كان قصير القامة مثل كثير من عظماء الرجال .

الطب الأبقراطى

الأولى بنا أن نبدأ بالمصنفات الأبقراطية كما فعلنا بالإلياذة والأوديسا . فندرس مشتملاتها واتجاهاتها ، ونرجئ النظر فى مؤلفها . والواقع أن الحقيقة الأساسية التى نحن بصددها هى هذه المؤلفات ، وهى بحكم طبيعتها خالدة . فى حين أن مؤلفيها أيًّا كانوا زالوا كالأشباح ، ورغبة فى الوضوح سنعالج الآراء الأبقراطية فى سلسلة من الموضوعات المحددة .

١ – علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء

كان علم التشريح بدائيًّا . وربما كان الأطباء الأبقراطيون على شىء واف من العلم بالعظام وخاصة الجراحين منهم ، وإن كان إلمامهم بالأعضاء الداخلية والأوعية الدموية والعضلات والأعصاب مبهماً للغاية . ومع هذا كانوا مفتقرين إلى شىء من الإرشاد فى التشريح ووظائف الأعضاء . وقد لجأوا إلى ما لجأ إليه سواهم من الأطباء الضليعين ، فى مثل ظروفهم . فاستنبطوا أو اقترضوا نظاماً عامًّا لوظائف الأعضاء . وكان سبيلهم فى هذا المنحدر الخطر ، لحسن الحظ ، مشفوعاً ببعض الاحتياطات . وقيدت تصوراتهم الجامحة بما عرف به اليونان من بديهة سليمة واعتدال فى الحكم . ولولا ذلك لوقعوا فيما وقع فيه الطب الهندى والطب الصينى فى نشأته وتطوره[٣٢] .

يتلخص علمهم بوظائف الأعضاء فى نظرية الأخلاط التى سبق أن ألمع إليها القدماء قبل ذلك بقرون كثيرة . ومن الواضح أن أجسام البشر (أو أجساد الحيوانات الأخرى التى هى أسهل للملاحظة المباشرة) . تشتمل على سوائل ذات أهمية بالغة ، كالدم والبلغم المائع والصفراء . وتتميز بعض حالات الاعتدال وتتحقق بما يرافقها من إفرازات سائلة ، ومثال ذلك السائل المخاطى اللزج الذى يسيل من الأنف على أثر الزكام ، والبصاق ، والإسهال . وكان العالم الفيثاجورى الكمايون الكريتونى (القرن السادس ق.م.) أول من اعتبر العافية حالة من

التوازن فى البدن) والمرض اختلالا فى هذا التوازن (isonomia as against monarchia) مثل هذا الاعتبار إنما يركز ، بطبيعة الحال ، على طبيعة السوائل الجسدية . والمواطن القابلة للتغير فى الجسم ، أكثر منه على الأعضاء الثابتة . وقد ردد إمبيدوكليس هذه الآراء بصورة أوضح وأدق فذكر أن الصحة (أو المرض) تابعة بدورها للتوازن (أو عدم التوازن) الناجم عن حال العناصر الأربعة (النار والهواء والماء والتراب) التى منها تتألف الأجساد البشرية (وكل شىء سواها) . وقد استتبعت نظرية العناصر الأربعة نظرية الطبائع الأربع[٣٣] المتممة لها (اليبوسة والرطوبة والحرارة والبرودة) التى أشير إليها فى كتاب « الطب القديم »[٣٤] وكتاب الصرع (المرض المقدس)[٣٥]. ثم استتبعت ، فيما بعد ، نظرية الأخلاط الأربعة (البلغم والدم والمرارة السوداء والمرارة الصفراء) . وأول شرح لنظرية الأخلاط الأربعة (يعنى العناصر الأربعة والطبائع الأربع وحتى الفصول الأربعة) يقع فى رسالة « طبيعة الإنسان » التى نسبها أرسطو إلى بوليبوس . ومما يدعو إلى الاستغراب أن نظرية الأخلاط هذه لم يرد شرحها فى رسالة الأخلاط الأبقراطية (Peri chymon) .

ثم نشأت نظرية الأمزجة الأربعة استكمالا لهذا الهرم من الرباعيات . وشرحت لأول مرة على يد جالينوس (النصف الثانى من القرن الثانى)[٣٦] . واستمرت النظرية الأساسية فى التعليم الطبى الجالينوسى حتى القرن التاسع عشر ، ولا تزال حية إلى اليوم — على الأقل — خارج نطاق الطب ، كما يشهد بذلك كثير من التعابير فى معظم لغات العالم .

إلا أن هنالك فرقاً أساسياً بين نظرية الأمزجة الأربعة المتأخرة والنظريات السابقة . فالعناصر الأربعة والطبائع الأربع والأخلاط الأربعة موجودة فى كل جسم . والعافية تستتبع قيام توازن بينها فى كل واحد على انفراد . أما نظرية الأمزجة فهى نظرية أنثروبولوجية تعين على تصنيف البشر . وكل فرد من الناس مميز بمزاج خاص . ولا معنى للقول بتوازن الأمزجة ، إلا بالمعنى الاجتماعى والسياسى[٣٧] ومقابلة هذه الرباعيات بسواها من النظريات الفسيولوجية مثل الثلاثيات

(tridosha)(الأخلاط الثلاثة) والخماسيات (Pancabhuta) (العناصر الخمسة) فى نظرية ايورفيدا . والنظرية البوذية فى العناصر الأربعة ، والفكرة الصينية عن ين (yin) ويانغ (yang)– أقول : إن المقابلة بينها من البحوث الشائقة حقاً، وكلها تمثل الرغبة العقلية الملحة فى تحقيق التناسق ، الأمر الذى أرشد رجال العلم (وأحياناً أضلهم) فى العالم أجمع .

٢ – التكهن فى مقابل « التشخيص »

كان الأطباء الكنيديون ، كما سبقت الإشارة ، يحاولون أن يشخصوا أو يميزوا أمراضاً خاصة ، فى حين كان منافسوهم فى كوس أكثر توفراً على العناية بالحالة المرضية بوجه عام . وكان همهم أن يردوا جميع الأمراض إلى إحدى فئتين (انظر الفقرة الرابعة فيما يأتى :) بل إلى فئة واحدة ، بحيث أصبح عماد الأمر عندهم التكهن (Prognosis) وهو القدرة على التنبؤ بكيفية نشأة المرض ووجهة تطوره وعاقبة أمره . وما إذا كان من المحتمل أن تكون الإصابة قاضية أم لا . وينبغى ألا يغيب عنا أن أطباء القرن الخامس قلما تهيأ لهم – إن كان قد تهيأ – أن يصيبوا فى تشخيص الأمراض ، وإن الذى كان يهم المرضى إنما هو العافية لا أنواع العلل وأعراضها ذلك أنهم كانوا يلوذون بالطبيب على نحو ما يلوذون بالكاهن . وكانت الأسئلة التى تشغلهم : هل يقدر لهم أن يعيشوا ؟ وهل يسترجعون العافية ؟ وكم يتوقع أن يطول زمن مرضهم ؟ تلك كانت أسئلتهم .

وبفضل التكهن تمكن الطبيب من أن يميز مراحل المرض المختلفة فى كل علة ، وتيسر له بزيادة الخبرة ، أن يتنبأ بها . ففى مرحلة المرض الأولى (تلك التى قد ندعوها اليوم بدور الحضانة) تضطرب نسبة الأخلاط تدريجياً ويختل توازنها . وقد دعا أبقراط هذه المرحلة مرحلة « النضج المرضى » (Pepsis) وهو مجاز نابٍ مستعار من طهو الطعام أو تخمير المشروبات الروحية . وبعد عدد معين من الأيام تتم عملية « الطهو » وتتجلى الأزمة المرضية أو بكلام آخر يتضح المصير ويتقرر الحكم . على أن هذا الحكم لم يكن دائماً حاسماً . حتى حين

تكون الأزمة ملائمة ، أى فى الحالات التى تدعو إلى التفاؤل . فإنه ربما عقبها انتكاس (hypostrophe) أو إفراز أو احتقان (apostasis) لمادة متقيحة (بصورة خراج أو دمل) . زد على هذا أنه لما كان الكثير من الأمراض التى تعهدها الأطباء اليونان من حميات الملاريا ، فإنها تتطور تطوراً منتظماً . وضرورى أن يكون هذا قدعرف من عهد قديم جداً . ولوحظ أن الأزمات المرضية الجديدة تتكرر دورياً فى أيام معينةهى «أيام المرض الحرجة» (crisimos hemera)[٣٨]. فجدول الأيام الحرجة على ما فى «كتاب التكهن بالمرض» Prognostic هى الـ ٤ ، ٧ ، ١١ ، ١٤ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٦٠ . وهى فى «كتاب الأوبئة» Epidemics[٣٩] الـ ٤ ، ٦ ، ٨ ، ١٠ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٤٠ ، ٦٠ ، ٨٠ ، ١٢٠ (وجميعها أيام شفعية) أو الـ ٣ ، ٥ ، ٧ ، ٩ ، ١١ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٣١ (وجميعها أيام وترية) .

إن الطبيب البارع هو الذى يستطيع أن يكون فكرة عامة عن المرض فى عهده الباكر . ويتمكن من أن يستشف الأخطار (الأيام الحرجة) قبل وقوعها ، فيعمل على تقوية إرادة المريض كى يصمد لها .

٣ — ماذا عرف الأطباء الأبقراطيون من أمراض ؟

عرفوا أولا الأعراض الأساسية لاختلال التوازن فى أجسام البشر ، وهى ارتفاع حرارتها . ومع أنهم لم يتمكنوا من قياس درجة الحرارة كما نفعل نحن اليوم فإنهم تمكنوا من أن يتحسسوها . وربما كانوا فى ذلك أبرع منا نحن اليوم . لقد تيسر لهم أن يراقبوا الجلد واللسان والعينين ، ويلاحظوا العرق والبول والبراز ، وأن يقروا الكثير من الفوارق التى تتميز بها الحميات بأنواعها . وربما كان بعض تلك الفوارق زائفاً ، لكن الراجح أن كثيراً منها كان ذا دلالة تفاضلية صحيحة . هل لاحظوا سرعة النبض ؟ يبدو أنهم لم يصلوا إلى ذلك . أو أنهم لم يلاحظوه بوضوح . وهو من الألغاز المحيرة فى المصنفات الأبقراطية . فإنها تكاد تخلو من أى ذكر للنبض . وإننا لنشعر أنه بعيد عن التصديق ألا يكون أطباء اليونان الأولون قد جسوا نبض مرضاهم . فإن ملاحظة حركة النبض (فى

الساعد أو الساق) مما لا يمكن أن يفوت الرجل النبيه عاجلا أو آجلا .

وهذا الأمر من الغرابة بحيث يضطرنا إلى أن نقف حياله برهة نتفحصه عن كثب . إن أطباء مصر القدماء كانوا على بينة من أمر النبض[٤٠] فكيف طمست معالم هذه المعرفة ؟ نعم إن ديموكريتوس يذكر ضربات النبض (phlebopalia) وفى مجموع المصنفات الأبقراطية إشارة واحدة إليه لا غير ، وذلك فى كتاب الغذاء Nutriment[٤١] وهى : « نبضان العروق (الأوردة) وتنفس الرئتين تبعاً للسن ، واتساق الحركة فى كل منهما أو عدم اتساقها ، وكل تلك دلائل المرض والعافية ، وهى دلائل على العافية أكثر منها على المرض ، أو على المرض أكثر منها على العافية » . وهذه إشارة غير وافية ، فالخلط فيها بين النبضان والتنفس واضح ، والإيهام فى التعبير مزعج[٤٢]. وهنالك دراسة فى النبض منسوبة إلى طبيب مغمور من أطباء العهد الأبقراطى هو أيجيميوس الاليسى Aigimios of Elis [٤٣] . وإلى بروكساجوراس الكوسى Proxagoras of Cos (النصف الثانى من القرن الرابع ق.م.) .

على أننا لا نستشعر الثقة إلا حين نوافى الهيلينى الإخصائى فى التشريح ، وهو هيروفيلوس الكلسيدونى (النصف الأول من القرن الثالث ق.م.) . فمنذ ذلك العهد (ونحن الآن فى عالم آخر مختلف عن الأول كل الاختلاف ، وهو العصر الهيلينى الناشئ فى الإسكندرية) . أخذت معرفة اليونان بالنبض تتقدم بخطى واسعة . وكانت نتائجها ، كما دونها جالينوس (النصف الثانى من القرن الثانى) فى مؤلفه (Synopsis peri sphygmon) أساساً لعلم النبضان حتى العصر الحديث[٤٤].

ولنعد الآن إلى الأطباء الأبقراطيين . فإنهم كانوا على علم بوقوع إصابات فى الحميات على اختلافها ، وإن عجزوا عن قياس درجة الحرارة وإحصاء نبضات القلب ؛ كما نفعل اليوم . ذلك أن أنواع الحميات كانت شديدة التباين من حيث مقدماتها ، ولكل نوع منها سيره الخاص . ودورته المعينة ، وأيامه الحرجة . وإليك هذا التفصيل فى كتاب الأوبئة (Epidemics) :

« يلازم بعض الحميات المريض باستمرار ، وبعضها الآخر يلازمه فى

النهار ويفارقه فى الليل . أو بالعكس . ومنها « حمى شبه الثلث » « وحمى الثلث » « وحمى الربع » « وحمى السبع » « وحمى التسع » .

وأكثر الأمراض حدة . وأشدها وطأة . وأعصاها علاجاً . وأكثرها خطراً على الحياة . إنما هو الحميات المستمرة . وأقلها خطراً . وأيسرها علاجاً ، هو حمى الربع . وإن كان أطولها مدى . ولا تقف حمى الربع عند هذا ، بل قد تساعد على إزالة أمراض أخرى. بعضها خطير . والحمى المعروفة « بشبه الثلث ». وهى أشد خطراً على الحياة من سواها . قد تستتبع أمراضاً حادة . وتسبق على الأخص الأمراض الصدرية . وتداهم الذين يعانون أمراضاً أطول أجلا وأبطأ زوالا . أما الحمى الليلية فليست شديدة الخطر . وإن كانت تلازم المريض طويلا . والنهارية تلازم المريض مدة أطول . وتؤدى ببعضهم إلى داء السل . وحمى السبع طويلة الأمد وإن كانت غير مميتة . وحمى التسع أطول أمداً . وغير مميتة أيضاً . و « حمى الثلث » الحقيقية تشتد سريعاً ولكنها غير مميتة . وحمى الخمس أخبث الجميع لأنها إذا سبقت داء السل . أو وفدت فى غضونه، قضت على المريض[٤٥].

وقد شرح و.هـ. جونز (W.H. Jones) المقصود بذلك كله شرحاً وافياً فى الكتب التى وضعها فى الملاريا وتاريخ اليونان[٤٦] . وكانت الملاريا والأمراض الصدرية أوسع الأمراض انتشاراً فى عهد الأبقراطيين وفى مواطنهم . وكانت الأخلاط فى كلتا الحالتين من أوضح ما تتجلى فيه الأعراض المرضية . والأخلاط هى : البلغم (فى المخاطيات . والنخاميات) والدم فى (حالة النزيف) والمرارة السوداء والمرارة الصفراء (فى نوبات التقيؤ فى الملاريا الدورية — المترددة) . وكانت الملاريا هى الباعث الغالب على ذلك كما يشير جونز حيث يقول :

« إن البلدان الموبوءة بالملاريا يغلب على سائر الأمراض فيها — لا على الملاريا وحدها — أن تشتد بقسوة فى مواسم خاصة . والملاريا الكامنة تؤثر فى الواقع على كل الأمراض »[٤٧] .

وهذا يساعد على تعليل اهتمام أبقراط بالتكهن (فى مقابل التشخيص) .

ذلك أن الطبيب المجرب يستطيع تمييز الملابسات فى أكثر الأوجاع على الرغم من اختلاف دورانها . وتباين فروقها الأخرى . وهذا ما حدا بأبقراط إلى أن يعنى بالمرض بوجه عام (فى مقابل الصحة) أكثر من عنايته بأنواعه المختلفة .

إن الحميات التى تناولتها المصنفات الأبقراطية بالبحث كانت فى جملتها حميات ملارية[٤٨]. أو من تلك التى تلازم ذات الرئة . وذات الجنب وداء السل . ولا ذكر هناك للجدرى والحصبة والحمى القرمزية والخناق والطاعون الدملى والزهرى . نعم، إننا على شبه يقين من أن الزهرى إنما وفد من أمريكا فى آخر القرن الخامس عشر . ولكن ماذا يقال بشأن الأمراض الأخرى ؟ ألم يكن لها وجود فى الزمان القديم ؟ وإذا تحقق وجودها فكيف فات قدماء الأطباء أن يلاحظوا بعض أعراضها الواضحة ؟ إن ذلك لمما يوقع فى حيرة شديدة ، كما هى الحال دائماً حين يشوب المعرفة والفطنة جهل بعيد الغور .

وهنالك لغز آخر هو سكوت المؤلفات الطبية عن الطاعون الذى اجتاح مدينة أثينا . فإن نحن أخذنا بعين الاعتبار الكارثة التى سببها هذا الوباء الوبيل تعذر علينا أن نعلل إعراض تلك المؤلفات عن وصفه بصورة واضحة ، فضلا عن إضرابها عن ذكره بتاتاً . ولولا أن ذكره ثوكيديديس — وهو ليس بطبيب — لكنا اليوم فى غفلة من أمر وقوعه .

وهنالك إشارات كثيرة إلى داء الرمد . وليس هذا بغريب . لأن أنواعاً عديدة من أمراض العين كانت ولا تزال واسعة الانتشار فى الشرق الأدنى . ومع ذلك لا نجد منها ما هو من قبيل العلم الفنى إلا ما ندر . وبعكس هذا وصفت الحميات الملارية وصفاً وافياً ، وصف ما كانت تؤدى إليه أحياناً من انحطاط صحى عام ، وانهيار فى الحالة المعنوية . وما يعرف بالهزال الملارى الذى يتميز بضعف البنية ، وفقر الدم ، وقتوم البشرة . وتضخم الطحال . وورد كذلك وصف لحالات الهذيان وغير الهذيان من الاضطربات العقلية . ومثل هذه الأمراض لا يمكن أن يغفل عنها لأنها تعلن عن نفسها .

٤ – علم الصحة وفن العلاج

إن الطابع العلمى الذى يميز جهود الأطباء الأبقراطيين يظهر جلياً فى كيفية علاجهم للمرض . ذلك أن الفارق الأساسى بين العالم وغير العالم ، أكثر ما يتجلى، فى أن الأول يكون غالباً على بينة من أمر جهله ، فى حين أن الآخر « تام المعرفة » . (وبهذا الاعتبار كان سقراط من رجال العلم) . إن القول « أنا عالم بكل شىء » عنوان الجهل الفاضح . وقياساً على ما تقدم يسوغ لنا أن نقول إن الفارق الأساسى بين الطبيب المستقيم والمطبب المشعوذ هو أن الثانى يقطع وعداً بالشفاء ، بينما يكون الأول أكثر تحفظاً وأوفر رصانة . وليس صحيحاً أن جميع الدجالين محتالون همهم ابتزاز الأموال لا غير ، فإن بعض الأطباء البارزين لا يقلون عن الدجالين طمعاً . والفرق بين الفئتين لا يقوم على درجة الطمع بمقدار ما يقوم على قلة النقد . والدجال فى الغالب ، كريم النفس مؤثر للخير ، ينشط لإغاثة جميع من يستطيع إغاثتهم من جيرانه . وهو حريص على تحقيق الشفاء للمريض ، حرص الرجل العادى على التماس المعرفة . والفكرة فى كلتا الحالتين هى وليدة الرغبة . ولقد كان أبقراط شديد الرصانة كثير التحفظ بالغ التواضع . وكانت وسائل العلاج الفنية المتوافرة لديه قليلة الجدوى ضعيفة الأثر ، وكان على علم بذلك . وقد لجأ فى علاجه إلى استخدام المسهلات ، والمقيئات والمنعشات ، والمحيضات ، والحقن الشرجية والجلدية ، والفصد[٤٩] . واستعان على إخلاء الجسم بالتقنين الصارم المسغب للطعام ، وعمد إلى المسكنات والحمامات ، والفرك والتدليك ، ووصف ماء الشعير « نقيع الشعير » و« حساء الشعير » (ptisane) ومنها اللفظة الإنجليزية (ptisan) ، والفرنسية (tisane) التى تطلق على أنواع النقيع كافة، والخمر وشراب العسل (عسل محلول بالماء) والعسل المخلل (عسل محلول بالخل) . ولنذكر أن اليونان عرفوا العسل لا السكر[٥٠]. وكان أكثر ما استطاع الطبيب أن يرجوه فى علاج المريض أن يلطف ألمه ما أمكن ، وينشط جسمه ، ويقوى معنوياته .

إن الألفاظ اللاتينية (vis medicatrix naturae) (قوة الطبيعة الشفائية)[٥١]

تعبر تعبيراً أنيقاً عن الفكرة الأساسية فى التعليم الأبقراطى . وهى فى التعبير الطبيعى الحديث « أن العافية حالة من التوازن المستقر ، والعلة تصدع فى ذلك التوازن . وحيث لا يكون التصدع بالغ العمق ، لا يلبث التوازن أن يستعيد مكانته من تلقاء نفسه . فينبغى ، والحالة هذه ، أن يوفر للمريض من الراحة الجسدية وهدوء النفس ما يتسنى معه للطبيعة تحقيق قوتها الشفائية ، ومزاولة مهمتها دون أن تقوم فى سبيلها العقبات ، ثم إعادة العافية (إرجاع حالة التوازن) فوراً إلى ما كانت عليه . وواجب الطبيب الأول أن يرعى المريض ويعين الطبيعة فى عملها .

وإذن علم العلاج أمز أقرب إلى تنظيم الغذاء منه إلى وصف العقاقير ، والضمان الرئيسى للعافية فى تدبير صالح يجمع بين كمية معتدلة من الغذاء ومقدار موافق من الرياضة . مع العلم بأن المشى من خيرة أنواع الرياضة لمن ألف الجلوس . وقد بسطت هذه الآراء فى الفصلين الثالث والرابع من كتاب « التدبير » (Regimen) ووردت متفرقة فى مصنفات أبقراطية أخرى .

٥ ــ علم المناخ الطبى

بين الرسائل الأبقراطية رسالة ، لم يخامر أحد الشك فى صحتها ، وعنوانها « الأهوية والأمواه والأماكن » (Peri aeron hydaton topon) ، وهى بلا ريب أول رسالة فى علم المناخ الطبى ، وتصف أثر طبيعة الأرض والمناخ فى الصحة والأخلاق.

وإذا استثنينا الأخصائيين فى منافع الحمامات وسواهم من الأطباء المتصلين بمناطق الاستحمام؛ فإننا نجد أن الأطباء الحديثين لا يعيرون عوامل المناخ من الالتفات ما أعارها زملاؤهم فى العصور القديمة والوسيطة . وذلك لأسباب منها أن أسلافنا القدماء كانوا أكثر خضوعاً لعوامل المناخ منا نحن اليوم ، لا سيما فى المدن حيث يعيش أحدنا ــ إذا صح التعبير ــ فى مناخ مصطنع . وقد يكون ذلك تحت تأثير الإهمال التدريجى والجهل المتزايد بمؤثرات المناخ الناجم عما لكثير من العوامل الأخرى من استهواء . ولعل الأولى بنا أن نعير عامل المناخ

نصيباً أوفر من عنايتنا؛ فمن الراجح جداً أن شفاء بعض المرضى يتم فى مكان ما أيسر مما يتم فى سواه من الأمكنة[٥٢] .

إن درس الصلات بين المناخ والحالة الصحية طالما كان موضوع عناية خاصة لدى مؤرخى الطب . وذلك جرياً على المنهج الأبقراطى من جهة ، واتباعاً لتقليد « الاستحمام »[٥٣] من جهة ثانية . على أن العامل الأساسى فى ذلك إنما هو تأثير المناخ وطبيعة الأرض فى انتشار الأوبئة . ونجد ، من ناحية أخرى ، أن القائمين على التعليم فى أوربا كانوا ، وما زالوا حتى الأمس القريب ، يعتبرون التاريخ والجغرافيا موضوعين متوازيين ، وعليه ليس مستغرباً أن يعمد العلماء الذين عالجوا تاريخ الطب إلى درس جغرافيته[٥٤] .

٦ ــ المظاهر العلمية فى المذهب الأبقراطى

تبين لنا من الأبواب السابقة بعض هذه المظاهر ، ولكن لابد لنا أن نعود إلى ذلك لأنه من صميم الموضوع الذى نحن بصدده . وإذا طلب إلينا تعريف الطب الأبقراطى بأخص مميزاته وبأوجز تعبير كان الجواب : إنه الطب العلمى . وهو الأول من نوعه فى اليونان إن لم يكن فى العالم أجمع[٥٥] .

أخذ أبقراط على عاتقه أن يحل المعضلات الطبية بطريقة معقولة ، بل إنه عرض نفسه أحياناً لاتهام طالما تعرض له الخبراء المعاصرون . وهو أنه كان أقل اهتماماً بشفاء الحالات المرضية الفردية منه بالمعرفة نفسها . وليس ثمة ما يثبت قلة اكتراثه بمرضاه إلا تلك القصص الإكلينيكية التى تصوره متبلد الشعور ــ وكذلك ينبغى أن يكون . على أن تقصير هذه الحكايات فى إبراز عواطفه لا يثبت أنه كان فاقد الشعور ، وأنه لم يكن يتألم لموت مرضاه . وسيرد لنا فى الفصل التالى نماذج من هذه القصص وهى مدهشة حقاً . ففى الفصلين الأول والثالث من كتاب الأوبئة يصف أبقراط حالات مرضية على نحو ما يفعل أطباؤنا اليوم مشيراً إلى ما يعتبره جوهرياً لا أقل ولا أكثر . فقد وصف اثنتين وأربعين إصابة انتهت منها خمس وعشرون بالوفاة . ووثق أبقراط ــ شأن العالم

الحق — أن الصدق ينبغى أن يقدم على كل اعتبار آخر ، ولذا دون حوادث إخفاقه بالدقة التى اعتمدها فى تسجيل ما حالفه فيه النجاح . (والطبيب الدجال هو الذى يحرص على أن يخفى إخفاقه . وليس بلازم أن يكون ذلك لأنه مخادع ، بل لأن مهنة الشعوذة الطبية فى جملتها تستتبع ضمناً الإغراق فى الثقة) .

إن مزايا عبقرية أبقراط العلمية تتجلى فى ملاحظاته الدقيقة وأحكامه المعتدلة وحبه للحق . وبصورة غير مباشرة فى رفضه للخزعبلات والأباطيل الفلسفية والخطابة [٥٦].

٧ — الطب الروحانى

عندما أوضح أبقراط أن واجب الطبيب الأول وضع قوة الطبيعة الشفائية فى الاعتبار . كان على بينة من أن الوسائل المساعدة على تحقيق ذلك نفسية ومادية . وغير كاف أن يتاح للجسم استيفاء أتم ما يمكن من الراحة (كأن يلزم المريض الفراش . ويقتصر على الأغذية الخفيفة جداً) بل ينبغى للنفس أيضاً أن تأخذ حظها من الراحة (الهدوء) وأن تنشط بالتشجيع والتعليل بالأمل . وواجب الطبيب أن يعالج مرضاه بالرفق الشديد .

وهاهو ذا فصل نموذجى فى النصائح مستخرج من مجموعة متأخرة ، وإن كانت ترجع إلى أصول أبقراطية وثيقة :

« ألح عليك ألا تكون بالغ الجفاء بل خذ بعين الاعتبار — جدياً — موارد مريضك القليلة أو الكثيرة . امنح خدماتك بغير مقابل أحياناً ؛ ذاكراً إحساناً سابقاً أو رضا تناله فى الحال . وإذا عرضت لك فرصة لخدمة غريب معسر فابذل معونتك لكل من هذه حاله . وحيث يكون الحب الإنسانى يتجلى أيضاً حب الفن نفسه . ذلك لأن بعض المرضى . وإن كانوا على علم بخطورة حالتهم . يستعيدون العافية بمجرد شعورهم بعطف الطبيب . من الخير أن نراعى المرضى لكى يظفروا بالشفاء . وأن نعتنى بالأصحاء لتدوم لهم العافية ، وينبغى أن يعتنى المرء بأمر نفسه . فيلزم ما هو لائق به » .

إن اهتمام أبقراط بالعلاج الروحانى أمر طبيعى مقبول على افتراض أنه عاين (وهو أمر راجح) ممارسة الحضانة الروحية فى المعابد الأسكليبية أو سواها. وإذا كان كذلك فقد سمع ، قطعاً ، بحوادث الشفاء العجيبة التى عمل الكهنة والحجاج ، ولا ريب ، على إذاعتها والإعلان عنها ، وتحققت عنده جدوى العلاج بهذه الأساليب . إن بين الجسد والنفس علاقة وثيقة متبادلة إلى أبعد غاية . ولا يمكن أن يكون أحدهما معافى إذا كان الآخر سقيماً . ويتعذر على الطبيب شفاء أحدهما إذا أهمل الآخر ، وينبغى أن يجتهد فى تقويتهما كليهما .

ومن المغرى جداً أن نطبق هذه الآراء على نص لأفلاطون مقتبس من محاورة خرميديس حيث يتحدث سقراط عن واحد من أطباء تراقيا الزلموكيسيين : « الذين قيل عنهم إنهم من المقدرة بحيث يستطيعون تخليد الإنسان . «قال الرجل التراقى إن اليونان كانوا على حق فيما ادعوه ، كما حدثتك الآن . قال: « ولكن، يا زلموكيس ، إن ملكنا الذى هو إله يقول : كما أنه يجب عليك ألا تحاول شفاء عينين بلا رأس ، أو رأس بلا جسد ، كذلك يجب عليك ألا تعالج جسداً بلا روح » . ولقد كان هذا هو السبب فى أن كثيراً من الأمراض أفلت من أطباء اليونان — لأنهم غفلوا عن « الكل » وهو الحرى بأن يستنفد عناءهم . ومتى تطرق الخلل إلى « الكل » فمن المحال أن يكون الجزء سليماً . وعلة ذلك ، كما قال ، إن كل ما فى الجسد ، بل وفى الإنسان جملة ، من خير وشر نشأ من النفس ، وجرى من ثم كما جرى من الرأس إلى العين . وعليه فإيثار ذلك الجزء بالمعالجة واجب فقط متى كان الرأس وسائر الجسم سليماً[٥٧] .

هذا الانتقاد الذى رواه سقراط عن الأطباء الزلموكيسيين ، إن صدق على بعض أطباء اليونان . فإنه لا ينطبق قطعاً على أبقراط .

الثمار الأبقراطية

إن ثمرة أبقراط الرئيسية هى إدخال الاعتبار والمنهج العلمى فى شفاء الأمراض ، والسبق إلى إنشاء الأدب الطبى العلمى ووضع أول الوثائق

الإكلينيكية . وهذا الأمر من الأهمية بحيث لا يفى به الإطراء مهما عظم . إن شخصية أبقراط ، على ما هى عليه من الغموض ، من أعظم الشخصيات إبداعاً فى تاريخ البشرية . ويكفى أن يقال ، وفاء بحقه ، إنه قام بكل ما كان يمكن القيام به فى عصره استناداً إلى الذكاء وحده ، دون الاستعانة بالعقاقير والأجهزة التى عرفت بعده . ومن الملاحظ حقاً أن فكرة تدوين الحالات الإكلينيكية وجمعها ، كما حققها هو فى كتاب « الأوبئة » (Epidemics) ، لم تستأنف من بعده . أما القصص التى رواها جالينوس فهى فى روحها دون إكلينيكيات أبقراط ، وهى أقرب إلى الإعلان عن النفس منها إلى تقارير صادقة سهلة على الطريقة الأبقراطية . ذلك لأن جالينوس كان يهمه تمجيد اسمه وإذاعة شهرته أكثر مما يهمه نشر الحقيقة . ولا نعثر بعد جالينوس على تقارير إكلينيكية حتى عهد الرازى (النصف الثانى من القرن التاسع) . ولا أستطيع أن أذكر ، من بعد هذا ، إلا شذرات قليلة مما خلفته العصور الوسطى فى نظام الأكل (regimina) والإرشاد الصحى (consilia) ، وتحليل أنطونيو بنيفينى الفلورنسى (المتوفى سنة ١٥٠٢) للحالة المرضية بعد الوفاة . إلا أن الفاصل الزمنى بين أبقراط وبنيفينى يبلغ نحواً من ألفى عام[٥٨] .

ومع أن أبقراط كان معنيًّا أكثر بعلاج المرض عامة منه بأمراض خاصة ، فإنه ترك لنا صوراً إكلينيكية لداء السل والتشنج المخاضى وداء الصرع ، وسجل الملامح المعتادة التى تعلو سحنة المحتضر أو الميت ، ووجه من أهزله الجوع أو أعياه الإسهال أو أسقمه الألم واستمرار المرض . ولا تزال هذه المظاهر تعرف بالوجوه الأبقراطية (facies Hippocratica) وهنالك ما يعرف « بالأصابع الأبقراطية » وهى أعراض خاصة ببعض أمراض القلب المزمنة ، إذ تتضخم مفاصل الأطراف حتى لتغدو كالنبابيت ، وذلك لعدم استكمال احتراق الأكسجين فى الجسم .

وتأمل هذه الحال التى ورد وصفها فى كتاب الأوبئة (Epidemics) .

« إن زوجة دلرسيس ، فى تاسوس ألزمها المرض الفراش . ونزل بها مكروه

فأصابتها حمى عنيفة صاحبتها رعشة شديدة . وكانت من أول الأمر تلتف جملة ثم تأخذ – دون أن تنبس ببنت شفة – فى تحسس الأشياء ، وتعبث بكل ما تقع عليه يدها ، فتجذب الأشياء وتخدش وتقتلع الشعر ، وتبكى ثم تضحك ، ولم تكن تنام . مع أن الأمعاء عولجت بالمسهلات ولم تخرج شيئاً . وكانت تشرب شيئاً يسيراً لأن المساعدين الملازمين يشيرون عليها بذلك . وكان البول رقيقاً وقليلا . والحرارة قليلة الارتفاع فى اللمس . والبرودة بادية فى الأطراف

وفى اليوم التاسع : أصابها شرود عقلى كبير تلاه وعى وصمت .

وفى اليوم الرابع عشر : تنفس خفيف وعميق فى فترات طويلة ثم قصيرة بعد قليل[٥٩] .

هذا التنفس الموصوف فى السطور الأخيرة يعرف اليوم إجمالا بتنفس تشينى – ستوكس (Cheyne-Stokes) نسبة إلى طبيبين من دبلن (١٨١٨) ، كما يعرف لدى طلبة الطب بـ « النبض المتحول[٦٠] » .

إن إفراط جالينوس ، ثم أطباء العرب ، فى الاحتكام إلى العقل ، وإغراقهم فى الزهو ، أنسى الناس أحياناً نباهة أبقراط الفطرية ، وحجب حكمته ووداعته عن أنظارهم . لكن أفذاذ الرجال فى كل عصر كانوا دائماً على استعداد ليؤدوا إلى شيخ الطب ما يستحق من الإكرام ، ولأن يحاولوا النسج على منواله . ولست أقصد الآن علماء فقه اللغة الطبى مثل أينوس فويس (١٥٢٨ – ١٥٩١) (Anuce Foes of Metz) ، أو العالم الهولندى ڤان درلندن (Van der Linden) ، اللذين نشرا مؤلفات أبقراط (سنة ١٥٩٥ و ١٦٦٥) على التوالى . وتداولها طلاب الطب على نطاق واسع ، بل أقصد – بالأحرى – الأطباء الإكلينيكيين أمثال توماس سيدنهام (Thomas Sydenham) (١٦٢٤ – ١٦٨٩) . ولقد نشأت فى آخر القرن الماضى موجة جديدة من الزهو الطبى عقب انتصارات علم الجراثيم . ومرّ وقت أخذ فيه كثير من الأطباء بسحر الجراثيم بحيث فاتهم النظر إلى المريض فى جملته . وهذا الاتجاه دعا ، بالاشتراك مع عوامل أخرى ، إلى إحياء المبدأ الأبقراطى من جديد ، وربما فى شىء من المغالاة أحياناً[٦١] .

إلا أن أفذاذ الأطباء يحسنون التمييز بين العلم والحكمة ، ولذلك يسلمون ، برغم التقدم العجيب الذى أحرزه علم الطب اليوم ، بأن فى الإنتاج الأبقراطى ما لا يعلى عليه .

الطب الاسكلبيادى

من الأمور النادرة التى نعرفها عن أبقراط أنه كان من أتباع الأسكلبياديين Asclepiadi (ذكر ذلك أفلاطون) . ونعرف فوق هذا أن هناك هياكل مكرسة لأسكلبيوس إله الطب وراعيه . فمن هم هؤلاء الأسكلبيون ؟ أول ما يتبادر إلى الذهن أنهم كانوا كهنة هذه المعابد . وقد يعمل الكهنة النبهاء ، فى معابد الاستشفاء ، على جمع أشتات التجارب الطبية من غير كبير عناء وبدافع شبه بديهى . ولكن الراجح أنه إلى جانب هؤلاء الرجال الذين كانوا نصف كهنة ونصف أطباء توجد مراكز طبية مشهورة مثل كنيدوس وكوس وفيها أطباء محترفون وصفوا بأنهم « أسكلبيون » ، إما لأنهم من سلالة الإله أو البطل أسكلبيوس . (Asclepios) أو لأن واجباتهم كانت بإلهام من ذلك الإله .

وحرفة كهذه جديرة بأن تنحصر فى أسر معينة ، ومن الطبيعى أن يدرب الوالد ولده ويورثه تجاربه وأسرار صناعته . ولقد تحدثنا فيما سبق عن أسرتين طبيتين — أسرة كتسياس (Ctesias) فى كنيدوس ، وأسرة أبقراط فى كوس . أما أبقراط فقد درّبه والده هراكليدس على هذه الحرفة . واستأنف ممارستها ابنه وصهره من بعده .

وكان يجمع بين هاتين الأسرتين جامع المصلحة . ومن المحتمل أن تكون هذه الرابطة تجلت ـ ولو فى بعض المواضع ـ بصورة قوانين وأنظمة مدونة أو غير مدونة . ومن المحتمل أن يكون الأسكلبيون : فى منطقة ما ، قد ألفوا ما هو شبيه بالنقابة[٦٢] . أى جمعية مهنية ذات كيان يتكيف من حيث القوة والضعف تبعاً لمشيئة أبنائه . وذات حافز ربما كان اقتصادياً محضاً أو اجتماعياً أو علمياً أو دينياً . وربما كان ملوناً بألوان عدة من هذه المؤثرات .

إن وجود كتب عديدة فى مؤلفات أبقراط تعالج موضوع واجبات المهنة لا يستلزم وجود النقابات الطبية . وإذا صح وجود مثل هذه النقابات كان من المحتمل أن ندعو إلى العمل على تأليف كتب تتولى تحديد واجبات الأطباء وإيضاح عوائدهم ومسلكهم . وكتب واجبات المهنة هى أولا : كتاب «القسم» الطبى (Oath)، وكتاب «القانون» (Law)، وكتاب «اللياقة» (Decorum) وكتاب «النصائح» (Precepts) والفصل الأول من كتاب « الطبيب» (Physician) وإذا كان بعض هذه المؤلفات متأخراً فإنها تضم نصوصاً قديمة . وهى التى تعنينا فى الوقت الحاضر .

والنص الموجز الوارد تحت عنوان « القسم » (Oath) يشتمل على اليمين المهنية ؛ وعلى شبه ميثاق (syngraphe) يقيد الطلاب بأساتذتهم . ودستور نقابة ، أيًّا كان نوعها ، لابد أن يشتمل على هذين الأمرين . فيجب أن يضم أعضاء النقابة بعضهم إلى بعض . ويهيئ للمرشحين سبيل التحصيل . والالتحاق بالنقابة ، ويعمل على صون تقاليد المهنة وضمانة استمرارها . وقد تكون النقابة سرية ، ولكنها منظمة خاصة على كل حال ؛ تفرض نظامها على أعضائها لا غير ، وتيسر حمايتهم ضد هيئات أخرى أو فى وجه الدخلاء غير ذوى الكفاية . على أنه ينبغى أن نحتاط فلا نأخذ هذه الأمور بمفاهيمها الحديثة الخالصة . فإن جميع وجوه النشاط فى النقابة الحديثة ، موجودة بالقوة (in potentia) فى النقابة القديمة ، إلا أنها لم توضع فى نظم معينة ، ولم تصغ فى قالب قانونى . مثال ذلك أنه قد يكون للنقابة شعار أو طقس ، يقتضى إجراؤه فى مناسبات خاصة ، كالاحتفال بقبول الأعضاء أو تشييع جثمانهم .

ولسنا نعرف عن ذلك شيئاً محققاً كل التحقيق . وعدم وجود الوثائق يدل على أنه حتى لو كان الأطباء الأسكلبيون قد انتظموا فى نقابات . فإن نقاباتهم هذه لم تكن ، فيما يظن ، بالغة الخطورة . ولئن صح وجود نقابات طبية فى بعض المناطق ، مثل جزيرة كوس ، فأهميتها كانت محصورة فى منطقة صغيرة . وفى عهد قصير المدى[٦٣].

تعليقات

(١) الأوديسا بالفصل الرابع ٢٢٧ – ٢٣٢ .Odyssey, IV, 227-232

(٢) هيرودوت ، الفصل الثانى ص ٨٤ .

(٣) فى مجموع مصنفات ابقراط احالات كثيرة إلى الطب المصرى ، راجع : ليتريه (Littré), *Oeuvres completes d'Hippocrate*, (10 vols; Paris, 1839-1961) المجلد العاشر ص ٥٧٢ .

(٤) هيرودوت ، الفصل الثالث ص ١٢٩ ، ١٣٢ .

(٥) Heinrich Schofer "Die Widereinrichtung einer Arzteschule in Sais unter Konig Darius I," *Z. Aegyptische Sprache* 37, 72-74 (1899)

مقتبس من نقش على « تمثال ناوفر » المحفوظ فى الفاتيكان ، وهو النص الوحيد من نوعه فى العاديات المصرية .

(٦) الإلياذة ، الفصل الثانى ص ٧٣١ – ٧٣٢ .

(٧) Emma J. Edelstein and Ludwig Edelstein *Asclepius, a collection and interpretation of the testimonies* (2 vols.; Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1945)

(إيزيس ٣٧ ، ٩٨ « ١٩٤٧ ») .

(٨) فيما يختص بعبادة الحية راجع : دائرة معارف الدين والأخلاق ، المجلد الثانى (١٩٢١) ص ٣٩٦ – ٤٢٣ ، M. Oldfield Howey, The encircled serpent. A study of serpent symbolism in all countries and ages. (422 pp., ill.; London, 1926).

راجع أيضاً: J.P. Vogel. *Indian serpent lore or the Nagas in Hindu legend and art* (quarto 332 pp., 30 pls.; London, 1926) (Isis 10, 234 '1938').

(٩) منكانوا أكثر تشبثاً بالخرافاتلم يقصدوا إلى المعابد الأسكليية ، بل توجهوا إلى حيث تقام الشعائر الروحانية الخفية ، أو إلى أماكن أخرى مثل معبد أمفياراوس (Amphiaraos) المجاور لاوروبوس Oropos (قرب تخوم بويوتيا Boeotia واتيكا Attica ، على شاطىء البحر ، فى مواجهة أيوبوا (Euboea) ، أو إلى هيكل تروفونيوس (Trophonios) بكهف فى لباديا (Lebadeia) [فى بويوتيا (Boeotia)] .

(١٠) تقع أبيدوروس (Epidauros) على شاطىء الخليج الساروني (Saronis gulf) إلى الشمال الشرقى من بيلوبونيز (Peloponnesos) .

(١١) المرجع الوحيد الذى يحضرنى هو فى De decenti habitu VI; vol. 9, p. 235 .

(١٢) لارماند ديلات فى كتابه « جامع الأعشاب (Herbarius) بحث مستقص رائع للغاية

فى هذا الموضوع تحت عنوان "Recherches sur le cérémonial usité chez les anciens pour la cueillette des simples et des plantes magiques" نشرته الأكاديمية الملكية البلجيكية فى بروكسل ١٩٣٦ (المجلد السابع والعشرون من مجلة إزيس Isis سنة ١٩٣٧ ص ٥٣١ – ٥٣٢) . وأعيد نشره منقحاً فى ١٨٠ صفحة وأربع لوحات فى ليبج بعناية جامعة ليبج سنة ١٩٣٨ (مجلة إزيس Isis ، المجلد الثلاثون ص ٣٩٥ سنة ١٩٣٩) .

(١٣) أجريجنتوم (هى اكراجاس باليونانية ، وجيرجنتى بالإيطالية) مدينة تقع قريباً من منتصف ساحل صقلية الجنوبى .

(١٤) ورد فى كتابى : « المدخل إلى تاريخ العلم » ، المجلد الأول ص ٩٦ « أبولونيا فى كريت » . والواقع أن هنالك مواضع كثيرة عرفت بأبولونيا ، وهذه المدينة على الأرجح « أبولونيا فى فريجيا » . ذلك أن جزيرة كريت كانت دورية » ، فى حين أن ديوجينيس وضع مؤلفاته فى أيونيا . وهذا لا يثبت أنه لم يكن كريتيا ، وأنه كانت نسبته إلى فريجيا أيسر محملا . ماذا أقول ؟ سآخذ فى الشك . راجع : Pauly Wissowa, vol. 9 (1903) 763. وعلى كل فإن ديوجينيس يعتبر ، بوجه الإجمال ، آخر ممثل الفلسفة الأيونية .

(١٥) لم يذكر شىء من ذلك فى مجموع المصنفات الأبقراطية (على ما فى فهرس ليتريه) Littré .

(١٦) تقع سلمبريا على الشاطىء الشمالى لبحر مرمرة .

(١٧) راجع : Littré المجلد التاسع ، ص ٣٨١ – ٣٩٩ .

(١٨) Armand Delatte, "Les conceptions de l'enthousiasme chez les philosophes presocratiques" (٨٨ صفحة باريس ١٩٣٤) . طبعة ثانية مستخرجة من العدد الثالث من مجلة L'antiquité Classique وليس هنالك ذكر للعلاج الموسيقى فى مجموع المصنفات الأبقراطية (انظر فهرس ليتريه).

(١٩) « كوس » جزيرة ، أما كنيدوس فتقع فى نهاية رأس بالغ الامتداد فى البحر ، فتكاد لا تختلف ، من ناحية عملية عن الجزيرة .

(٢٠) يجوز اعتبار المباحث التالية كنيدية الأصل بدرجات متفاوتة فى الأقسام الثانى والثالث والرابع من كتاب الأمراض ، وهى العلل النفسية (Affections) العلل الباطنة (Internal Affections) التوليد (generation) طبيعة الطفل ، أمراض النساء ، والعقم ، وهذا الجدول غير شامل . ثم إن نص هذه المباحث مثبت فى المجلدات السادس والسابع والثامن من مجموع ليتريه .

(٢١) إن عدداً وافراً من المأثورات الأبقراطية تتصل بأمراض النساء وعلم التوليد وطب الأطفال. وهنالك إشارات كثيرة إلى هذه الموضوعات فى مصنفات أبقراطية أخرى .

(٢٢) لعل ورود ذكر يودكسوس هنا غير متوقع ، لأنه كان رياضياً وفلكياً . وسنناقش مؤلفاته الأساسية فى فصل آخر . على أنه حصل شيئاً من التدريب الطبى على يد فيلستيون .

(٢٣) يأتى أرسطو على ذكرها فى (Historia animalium) (الفصل الخامس الفقرة ١٥

ص ٥٥١ ، عمود ٢) لكنه لا يشير إلى الزمن الذى عاشت فيه .

(٢٤) إن الملابس الكوسية (Coae vestes) كانت ذات شهرة فى العصور القديمة وإن كانت تختلف عن الملابس الصينية (vestes sinicae) المصنوعة من الحرير الصينى . والفرق بين الحرير الحقيقى (nema sericon, metaxa) (من أصل صينى) والحرير الغريب (الزائف) (من أصل هندى ؟ أو كوسى) يتعذر بسطه هنا ، انظر (F. Warre Cornish) ف . وارکورنيش . محرر المعجم فى العاديات اليونانية والرومانية . (Concise dictionary of Greek and Roman antiquities) لندن سنة ١٨٩٨ ص ٥٧٤ ، وراجع البرت نوبرجر The technical arts and sciences of the ancients (Albert Neuburger) لندن سنة ١٩٣٠ ص ١٦٥ — و١٦٧ . « القدماء فى مهنهم وعلومهم الفنية » .

(٢٥) من الأمور المثيرة أنه كان بين كوس وكنيدوس منافسة فى عبادة أفروديت فى أسكليبيوس . فى حين كانت الأولى تفاخر برسم للآلهة من صنع أبليس (Apelles)، كان فى حوزة الثانية تمثال لأسكليبيوس من تحت براكسيتليس (Praxiteles) وليت مدننا الأمريكية تتمكن من أن تتعهد منافسات كهذه .

(٢٦) لعل من الأسلم أن نقول إنه توفى بين السنتين ٣٨٠ و ٣٧٠ . ويذكر سدهوف Sudhoff أن أبقراط توفى سنة ٣٩٠ فى السبعين من عمره . على أن ذلك كله من باب التخمين . انظر Ann. Medical History 2, 18 (1930)

(٢٧) أفلاطون ، محاورة بروتاجوراس (Protagoras) ص ٣١١ الفقرة الثانية .

(٢٨) أفلاطون : محاورة فيدروس (Phaidros) ص ٢٧٠ الفقرات الثالثة والرابعة والخامسة.

(٢٩) أرسطو : كتاب السياسة (Politica) ص ١٣٢٦ الفقرة الأولى .

(٣٠) يستشهد أرسطو برسالة « طبيعة الإنسان » Nature of man. وينسبها إلى بوليبوس (Polybos) وربما وردت فى محاورة فيدروس Phaidros إشارات ضمنية إلى هذه الرسالة ، أو إلى كتاب « الطب القديم » Ancient Medicine ومن المتعذر أن نعرف بالضبط أى الكتب كان مينون (النصف الثانى من القرن الرابع) يقصد على وجه اليقين .

(٣١) جالينوس الفصل الخامس عشر ص ٤٥٦ .

(٣٢) انظر فيما يتعلق بالطب الهندى ، مجلة إيزيس (Isis) المجلد ٣٤ ص ١٧٤ — ١٧٧ (سنة ١٩٤٢ — ١٩٤٣) ، والمجلد ٤١ ، ص ١٢٠ — ١٢٣ (سنة ١٩٥٠) ، وفيما يتصل بالطب راجع مجلة إيزيس : المجلد العشرين ص ٤٨٠ — ٤٨٢ (سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٤) والمجلد الثانى والعشرين ، ص ٢٦٧ — ٢٧٢ (سنة ١٩٣٤ — ١٩٣٥) ، والمجلد ٢٧ ص ٣٤١ — ٣٤٣ (سنة ١٩٣٧) ، والمجلد ٣٣ ص ٢٧٧ — ٢٧٨ (سنة ١٩٤١ — ١٩٤٢) ، والمجلد ٤١ ص ٢٣٠ (سنة ١٩٥٠) ، والمجلد ٤٢ ، ص ٢٦٥ — ٢٦٦ (سنة ١٩٥١) .

(٣٣) سمى إمپيدوكليس العناصر الأربعة rhizomata ، وسماها بعد ذلك أفلاطون (Stoicheia) وقد غلبت عليها التسمية الثانية . وهى لا تزال محفوظة فى مصطلحاتنا الحالية مثل (Stoichiology) (علم

عناصر الأنسجة الحيوانية) و (Stoichiometry) و (علم مبادىء المركبات العنصرية) .

أما الطبائع الأربع (الخصائص أو القوى) فدعاها أبقراط أو من سبقه dynameis ، وبقى هذا اللفظ شائعاً زمناً طويلا فى اليونانية واللاتينية (dinamidia) ، واللفظة الإنكليزية (Pharmaco-dynamics) لا تزال تذكرنا بهذا الأصل .

وقد شرح نظرية الأمزجة الأربعة كوينتوس Quintos المختص فى علم التشريح والذى اشتهر فى مدينة روما فى عهد هادريان (١١٥ – ١٣٧) ، وأسس مدرسة للطب التى ينسب إليها أساتذة جالينوس . وقد نفى إلى برجامة Pergamon ومات فيها سنة ١٤٨ . ووضع جالينوس كتاباً انتقد فيه آراء كوينتوس فى الأمزجة الأربعة . انظر مجلة إيزيس (Isis) المجلد الثامن ص ٦٩٩ والعدد ١٠٥ (١٩٢٦) ، وأيضاً كتاب « مقدمة فى تاريخ العلم » المجلد الأول ص ٢٨١ (Introduction) .

(٣٤) الطب القديم : الفصل الخامس عشر .

(٣٥) الصرع : الفصل الحادى والعشرون .

(٣٦) انظر مقال سارتون « ملاحظات على نظرية الأمزجة » فى مجلة إيزيس المجلد الرابع والثلاثين ص ٢٠٥ – ٢٠٧ (١٩٤٢ – ١٩٤٣) .

(٣٧) إن الفوارق فى الأمزجة ، أو فى تركيب الأجسام ، الناجمة عن عوامل المناخ أو خصائص الجنس ، بينها أبقراط بوضوح فى رسالة «الأهوية والأمواه والأماكن» ، ولم يورد شيئاً عن الأمزجة الأربعة . واللفظ اليونانى « للمزاج » هو Crasis (مزج) ، ذلك لأن أى مزاج إنما ينجم عن امتزاج خاص للعناصر والطبائع والأخلاط الأربعة . وعنوانه رسالة جالينوس هو : Peri crason, De temperamentis; انظر كتاب ك . ج . كون : المجلد الأول ص ٥٠٩ – ٦٩٤ .

(K.G. Kühn, Galeni opera omnia) vol. 1, pp. 509-694.

(٣٨) « أقوال مأثورة (Aphorisms) » الفصل السابع ص ٨٥ .

(٣٩) كتاب « التكهن بالمرض » (prognostic) الفصل العشرون ، وكتاب « الأوبئة » (Epidemics) المجلد الأول ، الفصل السادس والعشرون .

(٤٠) James Henry Breasted the Edwin. Smith surgical papyrus (Chicago: University of Chicago Press, 1930), Vol. I (*Isis* 15, 355-367 (1931)

(٤١) كتاب الأغذية الفصل الثامن والأربعون (Nutriment)

(٤٢) لا نعثر فى فهرس ليتريه على مادة (pouls) (النبض) و (sphygmologie) (علم النبضان) ، لكن انظر مادة (battements) (النبضان العنيف فى الصدغ) . وقد خصص الفهرس المفصل لكتاب جالينوس الذى نشره كون (Kühn) مجالا رحباً (ص ٢٠ ، ٥٠٦ – ٥١٦) لأنواع النبض واختلافاتها. وهذا يعيننا على تقدير التقدم الطبى الذى أحرز هذا الموضوع بين القرن الخامس ق . م . والثانى للميلاد .

(٤٣) وضع أجيميوس Aegimios كتاباً فى خفقان القلب ، أو حركة النبض ، Peri palmon اعتمده جالينوس وأشار إليه . ولولا ذلك لبقى مجهولا . راجع Biographisches Lexikion der her-

المجلد vorragenden Aerzte *aller zeiten* und Volker (ed. 2, 6 Vols.; Berlin, 1929-1935) الأول ص ٣٧ .

(٤٤) Emmet Field Horine, "Epitome of ancient pulse lore, « خلاصة علم القدماء بالنبض» نشرة تاريخ الطب (Bull. History of Medicine) المجلد العاشر ص ٢٠٩–٢٤٩ (١٩٤١).

(٤٥) كتاب الأوبئة (Epidemics) المجلد الأول ، الفصل الرابع والعشرون .

وفى الفصل الخامس والعشرون والسادس والعشرون معلومات إضافية لا مجال لذكرها هنا عن نشوء مختلف الحميات وتطور حالاتها مثل : « الأيام الحرجة ».

(٤٦) و.هـ. س. جونز .Malaria a neglected factor in the history of Greece and Rome « الملاريا عامل مغفل فى تاريخ اليونان وروما (١١٤ صفحة كمبردج ١٩٠٧)؛ الملاريا وتاريخ اليونان » Malaria and Greek History (١٨٤ صفحة ، مانشستر ١٩٠٩) (مجلة إيزيس ، المجلد السادس ، والعدد ٤٨ (١٩٢٤ – ١٩٢٥) .

يدعى جونز أن انحطاط اليونان ثم روما وسقوطهما يرجع فى الأغلب إلى الملاريا . إذا كان من المتعذر إثبات افتراضه هذا بالدليل الناجع ، فإنه – والحق يقال – ساعدنا على تحقيق الأهمية الكبرى التى كانت للملاريا فى التاريخ القديم . ولا يزال هذا المرض ، فى كثير من أقطار العالم ، العامل الطاغى على مسرح الحوادث – وهو السبب الرئيسى لتأخر بعض البلاد الشرقية . انظر إيزيس المجلد الحادى والأربعين والعدد ٣٨٠ (١٩٥٠) . وهناك خلاصة جيدة لتاريخ الملاريا ولطبيعة هذا المرض المشئومة حتى الوقت الحاضر فى كتاب نورمان تيلور : « خشب الكينا فى جافا» (Cinchona in Java) (نيويورك : جرينبرج ١٩٤٥) (ايزيس ، المجلد السادس والثلاثون والعدد ٢٣٠ «١٩٤٦»)

(٤٧) جونز « أبقراط » (Loeb Classical Library) المجلد الأول ص ٤ من المقدمة .

(٤٨) نعم ، لم يتمكن الأطباء الأبقراطيون من أن يفهموا الطبيعة الأساسية للأمراض الملارية ، ولا استطاعوا أن يعرفوا دواءها الخاص «خشب الكينا» وهو نبات موطنه أمريكا الجنوبية – ذلك النبات الذى كشف للعالم فاعليته العجيبة هنود بيرو فى القرن السابع عشر . أما استخراج الكينا منه فتم على يد بليتيه (Pelletier) وكانتو (Caventou) سنة ١٨٢٠ . وفيما يلى خلاصة الخطوات الأولى التى خطاها البحث العلمى فى معرفة الملايا . ففى سنة ١٨٨٠ عثر لافيران Laveran على البسيط الحيوانى (protozoans) الخاص بفصيلة الطفيليات الملارية (Plasmodium). وذلك فى الكريات الحمراء فى دم المصابين بالملاريا . وفى سنة ١٨٩٧ وجد السير رونالدروس (Sir Ronald Ross) هذه الطفيليات الملارية فى أمعاء البعوض . وأظهر جيوفانى باتستاجراسى سنة ١٨٩٨ أن الذى يحمل طفيليات الملاريا من البعوض فصيلة هى المعروفة بالأنوفيليس (Anopheles) . وحرى بالملاحظة أن هذه الكشوف تحققت فى مواضع مختلفة . فكشف لافيران تم فى قسطنطينة الجزائر ، وروس فى بيجومبت سيكلوندرأباد قرب حيدرأباد وجراسى فى روما . أما قصة الكينا فتجرى على مسرح يمتد إلى جافا ، وكل ذلك بعيد كل البعد عن جزيرة كوس ، مكاناً وزماناً .

(٤٩) انظر فيما يتعلق بالقصد « المقدمة فى تاريخ العلم » المجلد الثانى ص ٧٦. مارس أبقراط الفصادة والحجامة ولم يستخدم العلق، والإشارة الوحيدة إلى العلق(bdella) فى مجموع المصنفات الأبقراطية وردت فى الفصل الثانى من البحث التمهيدى ص ١٧ (Prorrhetic II, 17)، وهى إشارة عارضة ، مؤداها أن امتلاء الزور بالدم ربما كان ناجماً عن وجود علقة خافية فيه . ويبدو من ذلك أن قدماء الأطباء لم يكتشفوا العلق، بل الأحرى أن يكون العلق هو الذى اكتشفهم . والعلق، فى مواطنه الطبيعية من أسباب الإزعاج الشديد . على أنه قد بان لبعض الأطباء النبهاء أن هذا الانزعاج من المستطاع تحويله إلى وجه من المنفعة . وفى مؤلفات جالينوس إشارات كثيرة إلى العلق . راجع فهرس الطبعة التى أعدها كون (Kuhn) (s.v. hirudines)

(٥٠) أدموند و . فون لبمان (Edmond O. von Lippmann, *Geschichte des Zuckers*) (برلين ١٩٢٩) مجلة إيزيس المجلد الثالث عشر ص ٣٩٣ — ٣٩٥ (١٩٢٩ — ١٩٣٠) . ولم يكن قصب السكر معروفاً غربى الهند قبل الفتوحات الإسلامية الأولى إلا فيما قل وندر (النصف الأول من القرن السابع) . انظر « المقدمة » . Introduction المجلد الأول ص ٤٦٥ . وظهر فى مصر سنة ٦٤٣ ، وفى سوريا (دمشق) سنة ٦٨٠ ، وفى قبرص سنة ٧٠٠ ، وفى إسبانيا سنة ٧١٤ ، وفى بروفانسيا سنة ٧٥٠ ، وجزيرة كريت سنة ٨١٨ وجزيرة صقلية سنة ٨٢٧ .

(٥١) للاطلاع على تاريخ هذه الفكرة راجع كتاب ماكس نوبورجر Max Neuburger نظرية قوة الطبيعة الشفائية عبر الزمان » (The Doctrine of the healing power of nature throughout the course of time Am. Inst. Homeopathy New-York 1932). ويجوز أن نعتبر فكرة « قوة الطبيعة الشفائية » vis medicatrix naturae الشاهد الأول على التنظيم الذاتى فى الأجسام الحية . قابل الـ meliu interieur لكلود برنارد . برأى ولتر براد فورد كانون (١٨٧١ — ١٩٤٥) فى نظرية المداواة بالداء ، فى مجلة إيزيس المجلد السادس والثلاثون ص ٢٥٨ — ٢٦٠ (١٩٤٦) وهو أكثر إسهابا . وقد تكون هذه الفكرة ذات اتصال بالناموس العام الذى قرره هنرى لوشاتليه (Henri Le Chatelier) (١٨٥٠ — ١٩٣٦) فى سنة ١٨٨٧ . وهو أن الاتزان فى جهاز ما ، إذا أزاحه عن مكانه ضغط عارض ، فإن انحرافه يجرى على نحو يميل معه إلى إزالة ذلك الضغط .

(٥٢) هذا معروف ومتفق عليه بشأن مرض واحد على الأقل هو داء السل .

(٥٣) انظر المقدمة Introduction المجلد الثالث ص ٢٨٦ ، ١٢٤٠.

(٥٤) مثال ذلك أن العنوان الفرعى لكتاب جانوس (Janus) الثالث هو « الوثائق الدولية لتاريخ الطب وللجغرافية الطبية » .

(٥٥) نذكر له هذه المأثرة منوهين بما للطب المصرى من فضل سبق وصفه فى الفصل الثانى .

(٥٦) انظر كتاب (الطب القديم) . Ancient medicine

(٥٧) أفلاطون : محاورة جرميدس ١٥٦ . Charmides

(٥٨) انظر مقال : ماكس مايرهوف « ثلاث وثلاثون ملاحظة اكلينيكية للرازى (حوالى

obeikandi.com

٩٠٠ ب . م .) » فى مجلة Isis ، المجلد الثالث والعشرون ص ٣٢١ – ٣٧٢ (١٩٣٥) مشتملا على النص العربى فى ١٤ صفحة . وقد نشر ما يرهوف على حدة صفحتين فى تصحيح الخطأ الوارد فى النص . وفى حوزتى نسخ من هذا التصحيح . وفيما يتعلق بنصوص نظام الأكل (regimina) والإرشاد الصحى (consilia) راجع المقدمة « المجلد الثالث ص ٢٨٥ – ٢٨٦ و ١٢٣٨ – ١٢٤٠ . أما كتاب بنيفيتى De abditis nonnullis ac mirandis morborum et sanationum causis. الصغير والواسع الشهرة (البندقية ١٥٠٧ ، وطبعات أخرى منه سنة ١٥٢١ ، ١٥٢٨ ، ١٥٢٩ ، ١٥٨١) فإنه يشتمل على وصف عملية من عمليات التشريح ، عدد من الحالات الاكلينيكية .

(٥٩) كتاب الأوبئة Epidemics ، الفصل الثالث ، الحالة الخامسة عشرة .

(٦٠) جان تشين (١٧٧٧ – ١٨٣٦) وصف هذا النوع من التنفس فى التقرير الثانى من تقارير مستشفى دبلين ص ٢١٦ (١٨١٨) Dublin Hospital Reports, 2, 216 1818 . ووصف وليم ستوك (William Stocke) (١٨٠٤ – ١٨٧٨) حالات أخرى سنة ١٩٤٦ .

(٦١) Isis المجلد الرابع والثلاثون ص ٢٠٦ (١٩٤٢ – ١٩٤٣) .

(٦٢) انظر مادة Guilds فى دائرة معارف الدين والأخلاق المجلد السادس (١٩١٤) ص ٢١٤ – ٢٢١ بقلم أ . أ . كراولى (A.E. Crawley) و . ج . س . ريد (J.S. Reid) وانظر أيضاً : « المقدمة » المجلد الثالث ص ١٥٢ – ١٥٦ .

(٦٣) انظر مقال و . ه . س . جونز (W.H.S. Jones) : « الجمعيات السرية والمصنفات الأبقراطية » "Secret societies and the Hippocratic writings"
(نشر مكتبة لويب Loeb الكلاسيكية) المجلد الثانى (١٩٢٣) ص ٣٣٣ – ٣٣٦ .